بقية أخيرة عالمية، ففيه زوايا ثلاث من ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾: زاوية مشتركة مع سائر ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ هي رمز الإبقاء لحياة سليمة صالحة إيمانية.

وأخريان تختصان به، أولاهما أنه البقية الأخيرة لحقل ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ وأخراهما أنه الذي به يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً، وهكذا بقية ربانية تحلق على المكلفين كلهم هي منقطع النظير بين كل بشير ونذير.

وفي التالي خطب للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام حول بقية الله المهدي القائم عجل الله تعالى فرجه: «يعطف الهوى على الهدى إذا عطفوا الهدى على الهوى ويعطف الرأي على القرآن إذا عطفوا القرآن على الرأي».

«... ألا وفي غد - وسيأتي غد بما لا تعرفون - يأتي الوالي من غيرها عمالها على مساوئ أعمالها، وتخرج له الأرض أفاليذ كبدها، وتلقي إليه سلماً مقاليدها، فيريكم كيف عدل السيرة وتحيي ميّت الكتاب والسنة»(١).

= أين تذهبون وأين يراد بكم؟ بنا هدى الله أولكم وبنا يختم الله آخركم فإن يكن لكم ملك معجل فإن لنا ملكاً مؤجلاً وليس بعد ملكنا ملك لأنا أهل العاقبة، يقول الله عز وجل: والعاقبة للمتقين، فأمر به إلى الحبس فلما صار إلى الحبس تكلم فلم يبق في الحبس رجل إلا ترشفه وحن إليه فجاء صاحب الحبس إلى هشام فقال له: يا أمير المؤمنين إني خائف عليك من أهل الشام أن يحولوا بينك وبين مجلسك هذا ثم أخبره بخبره فأمر به فحمل على البريد هو وأصحابه ليردوا إلى المدينة وأمر ألا يخرج لهم الأسواق وحال بينهم وبين الطعام والشراب فساروا ثلاثاً لا يجدون طعاماً ولا شراباً حتى انتهوا إلى مدين فأغلق باب المدينة دونهم فشكى أصحابه الجوع والعطش، قال: فصعد جبلاً يشرف عليهم فقال بأعلى صوته: يا أهل المدينة الظالم أهلها أنا بقية الله يقول الله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ٨٦] قال: وكان فيهم شيخ كبير فأتاهم فقال لهم: يا قوم هذه والله دعوة شعيب النبي والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذن من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصدقوني في هذه المرة وأطيعوني وكذبوني فيما تستأنفون فإني ناصح لكم، فبادروا فأخرجوا إلى محمد بن علي عليه السلام وأصحابه بالأسواق فبلغ هشام بن عبد الملك خبر الشيخ فبعث إليه فحمله فلم يدر ما صنع به.

(١) (الخطبة ١٣٦).

«فلا تستعجلوا ما هو كائن مرصد، ولا تستبطئوا ما يجيء به الغد، فكم من مستعجل بما أن أدركه ود أنه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غد، يا قوم هذا إبّان ورود كل موعود، ودنوّ من طلعة ما لا تعرفون، ألا وإن من أدركها منا يسري فيها بسراج منير، ويحذو فيها على مثال الصالحين، ليحلّ فيها ربقاً، ويعتق رقاً، ويصدع شعباً، ويشعب صدعاً، في سترة عن الناس، لا يبصر القائف أثره، ولو تابع نظره، ثم ليشحذنّ فيها قوم شحذ القين الفصل، تجلى بالتنزيل أبصارهم، ويرمى بالتفسير في مسامعهم، ويغبقون كأس الحكمة بعد الصبوح. . قد لبس الحكمة جنتها، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها والمعرفة بها والتفرغ لها، فهي عند نفسه ضالته التي يطلبها، وحاجته يسأل عنها، فهو مغترب إذا اغترب الإسلام، وضرب بعسيب ذنبه، وألصق الأرض بجرانه، بقية من بقايا حجته، خليفة من خلائف أنبياءه» (١٨٠).

أجل، إنه البقية المتميزة بين ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ لا في مقامه السامي، فإن محمداً ﷺ أسمى منه، وإنما في تحقيق البقية المحمدية وسائر البقيات النقيات الرسالية على مدار الزمن الرسالي.

هنا في حقل البقية ﴿ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ﴾[1] ثم بقية منه هم الدعاة إلى الله، ثم الدعوة إلى الله، فـ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ - هي في الأصل - البقية الربانية من الله، إبقاء على من يتبع شرعة الله، ثم الذين يحملون شرعة الله برسالته ودعوته، ومن ثم البقية الباقية من الدعاة المعصومين عليهم السلام إلى الله، وهو بقيت الله في الأرضين صاحب العصر وحجة الدهر القائم المهدي من آل محمد ﷺ.

ففي حين يصدق على شعيب أنه من ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ ولكن ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم

(١) سورة القصص، الآية: ٦٠.

﴿بِحَفِيظٍ﴾ يحوّل الأصل في هذه البقية إلى الله، أنه البقية الحفيظة، وما الذين يحملون رسالاته إلا بقيات منه وبإذنه، وليسوا حفاظاً لا في تحقق الهدى ولا في تطبيق شرعة، اللّهم إلّا هدى دلالية معصومة بالله، وبمثل ذلك الأسلوب المرن الحذير، البشير النذير، يشعر المخاطبون بخطورة الموقف وثقل التبعة واقفين وجهاً لوجه أمام العاقبة التي ترقبهم بلا وسيط ولا حفيظ.

ذلك و﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تخرج الناقصين في المكيال والميزان عن الإيمان حين يزعمون أن هذه البقية الباغية خير من البقية النقية الساغية!.

فكما أن المتعودين على الربا يقال لهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1] كذلك الناقصين في المكيال والميزان يقال لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وإنما قالوا ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ لأنها أظهر مظاهر الإيمان، وأن شعيباً كان دائب الصلاة لأنها خير موضوع وقربان كل تقي، وهم كانوا دائبي الهزء به إذا مروا به وهو يصلي، فلما وعظهم ردوا عليه بما كان يفعله، قاصدين أنت شأنك وصلاتك فما يخصك بما نعتقد أو نعمل ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ...﴾[2].

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾:

ردّ مردود في كافة الحقول الإنسانية السليمة، واضح التهكم، بيّن الهزء. سخرية الجاهل المطموس المركوس حين لا يجد أي رد عاقل ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ...﴾ فما هي الصلة بين صلاتك، وأن نترك نحن حريتنا في العقيدة والعمل وأن نترك ما يعبد آباءنا أو ﴿أَن نَّفْعَلَ فِىٓ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٩.
(٢) سورة هود، الآية: ٨٧.

﴿أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ فأنت على شغلك وهو صلاتك ونحن على أشغالنا بسنتنا العريقة التي لسنا لنتحلل عنها ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ يقولونها هازئين، أم ومتسائلين مستنكرين أن لست حليماً ولا رشيداً، أم أن هذه الدعوة لا تناسب الحلم والرشد.

فكما أننا لا نتدخّل في صلاتك فلا تتدخل أنت كذلك في صلاتنا العقيدية والعملية أيها الحليم الرشيد! فليس من الرشد أن تأمرنا بما لا صلة له بصلاتك وسائر عبادتك وأية صلاتك، فقد ﴿كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾[1] بالحلم والرشد، فكيف تأمرنا بخلاف الرشد؟!.

ورغم أن هؤلاء الأغباش المجاهيل لم يجدوا بمحضرهم من الهزء في المفاصلة التامة إلّا صلاته وعبادتهم وتجارتهم الباخسة، نرى أن الصلاة الناشئة عن عقيدة التوحيد هي مع سائر الشؤون الحيوية لحمة واحدة، فالشعائر كلها ومعها المعاملات كلها هي ذات صلة عريقة قريبة بصالح العقيدة، فـ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فهي الآمرة بكل عرف والناهية عن كل نكر.

ذلك، وقد نرى الجاهلية المتحضرة هي أنكى من الغابرة في أمثال هذه المواجهات الجاهلة مع دعاة الحق، ولا فحسب في الجاهلية الملحدة أو المشركة. بل والجاهلية التي تسربت إلى أدمغة مجاهيل من المسلمين فترسبت فيها لحد خيّل إليهم أن لكل من العقيدة وعمليات الحياة دورها الخاص، قد تجتمعان وقد تفترقان، فقد يتساءلون: ما للإسلام وسلوكنا الشخصي الذي يخصنا في صالح الحياة، وما أشبه من تساءلات تشابه ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ تعريضاً بضدهما حيث الحليم الرشيد لا يدعوا لما لا

(١) سورة هود، الآية: ٦٢.

يخصه دون صلة بين اختصاصه واختصاص الآخرين! فليس من الرشد أن ينظر الإنسان إلى مجتمعه من منظره الشخصي، فإذا هو مسلوب الحرية بصلاته أم أية صلاته، يحاول أن يسلب - كذلك - حريات الآخرين!.

فلا حجة في صلاتك أن نترك نحن الجماهير حرياتنا العقيدية والعملية، فلأن أنفسنا هي أنفسنا وأموالنا هي أموالنا، فكلا التحديد والتهديد لما نعتقد أو نعمل خارجان عن الطريقة السليمة المألوفة بين بني نوع الإنسان.

ذلك لأنهم أجمع على مختلف دركاتهم لم يعرفوا صلة العقيدة الصالحة بصالح الحياة الإنسانية حاضرة في كل حقولها، فأول ما تصلحه العقيدة الصالحة هو الحياة الحاضرة ومن وراء الأخرى التي هي من خلفياتها ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[1].

وهنا يتلطف شعيب كأن لم يسمع إلى هذه السخرية، حاسبا أنهم يتطلبون بينة يسندون إليها كسائر الدعاة إلى الله الذين يحاولون في حمل الناس إلى الحق دون صغي لباطلهم العاطل، ولا إجابة عن سخرياتهم الهازئة:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾:

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ كسائر بينات الرسل في المغزى والمعنى، والرسول بنفسه بينة تبين حق رسالته، ثم ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ فلا أخالفكم في قضية الفطرة والعقلية السليمة أو الشرعة الربانية، ولا أخالفكم بصلاتي إلى ما أنهاكم عنه، فالفطرة والعقلية السليمة ورسالات الله كلها،

(١) سورة النجم، الآيات: ٣٩-٤١.

وصلاتي أنا، كلها عساكر من البراهين لصالح ما أنهاكم وآمركم، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ دون تأمر عليكم لا يعنى ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ﴾ في دعوة الحق وتحقيقه ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ فما أنا إلا رسول الله ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ لا على سواه ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ لا إلى سواه.

وهنا في ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ لمحة صارحة أن إرادة مخالفة الناهي لما ينهى عنه هي من المنكرات، فضلاً عن أصل المخالفة ولا سيما إذا كانت جاهرة، وهكذا الأمر في الأمر: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾(٢) (٣).

فهذه نصوص ثلاثة تحظر عن مخالفة الآمر والناهي ما يأمر به أو ينهى عنه، وأنه خلاف العقل ومقت كبير.

ولماذا ﴿أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ دون «فيما أنهاكم عنه»؟ علّها المخالفة الناحية منحى النهي، أنني ما أريد مخالفة في نفسي ناشبة إلى ما أنهاكم عنه حتى تحتجوا علي بما أخالفكم، فإن الاقتراف الجاهر للحرام له تأثير عظيم سلبي في مادة النهي، حيث يحرض المنهي على الإصرار فيه(٤).

وهنا ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ تجعل نفس هذه الإرادة محظورة فضلاً عن فعلها خفية أو جهاراً، فقد يحظر على ذلك الثالوث، فيحظر عن النهي المخالف للإرادة والفعل.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الصف، الآيتان: ٢، ٣.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤٧ - أخرج ابن أبي حاتم عن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود فقالت: انتهى عن المواصلة؟ قال: نعم، قالت: فلعله في بعض نساءك، فقال: ما حفظت إذا وصية العبد الصالح: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هُود: ٨٨].

(٤) المصدر أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي عليه السلام قال قلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله أوصني...

ووجه آخر أنني ما أريد أن أخالفكم فيما تحكم به فطركم وعقولكم قصداً فيها إلى ما أنهاكم عنه، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ وليس إصلاح الفاسد تصرفاً معادياً مهما سلب حرية ليست بحريّة للإنسان العاقل، إذ ليست كلّ حرية محبورة، حيث الحريات الجاهلة والشهوانية التي تصطدم كرامة الإنسان في شخصه وفي الآخرين، هذه الحرية محظورة يجب على الصالحين تحديدها.

والعقلية الصالحة الحنونة في الإنسان، المدني الاجتماعي بالطبع، تقتضي المحاولة في إصلاح الآخرين العائشين معه كما يصلح نفسه، فضلاً عما إذا كان رسول ربه في الإصلاح.

ولأن الحريات الطليقة لأفراد المجتمع متصادمة، فلا بد من تحديدها عن أي تصادم إلى تلائم يقوم به صالح المجتمع نفسه، وإنما يقود ذلك التحديد المصلحون الصالحون ولا سيما الرساليون، ومن أمارات ذلك الإصلاح أن يأمر المصلح بما هو مؤتمر به، وأن ينهى عما هو منته عنه.

فالحرّيّة الحريّة بالإنسان في حياته الإنسانية هي المحددة بالفطرة والعقلية السليمة المكمّلتين بالحدود والقرارات الشرعية، حتى يصبح المجتمع الإنساني آمنا عن كافة الاضطرابات والاصطكاكات والتحرّجات: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[1] ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2].

فكما الحرية الإنسانية فطرية، يتوخاها الإنسان كأصل في حياته، كذلك تحديدها بالحدود الصالحة التي تصلحها، ومثالاً لذلك المركبات المقصود

(١) سورة القصص، الآية: ٦٨.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

منها السير وسرعته، ولكنها - أيضاً - بحاجة إلى سواق عقلاء يضبطون مسيراتها ومصيراتها عن الاصطدامات.

أجل، فالمصلح عليه أولاً أن يصلح نفسه ثم يصلح الآخرين بصلاحه وبكل سلاحه الصالح في الدعوة، دون مخالفة أو إرادتها إلى ما يأمر به أو ينهى عنه.

ولأن إرادة المخالفة لما ينهى عنه إفساد للمنهي والنهي، لذلك قابلها بـ ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾.

وهنا لما يقول الإمام علي عليه السلام يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصني، قال: قل ربي الله ثم استقم - يقول - قلت: ربي الله وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب». قال صلى الله عليه وآله وسلم: ليهنك العلم أبا الحسن لقد شربت العلم شرباً ونهلته نهلاً»[(١)].

وتوفيق الله هو جعل قال العبد وحاله وفعاله وفقاً لمرضاته في محبور أو محظور، فعلاً لمحبور وتركاً لمحظور[(٢)].

فحين خيل إلى قوم شعيب أنه ينهاهم عما لا صلة له بما هو شغله يرد عليهم صارخاً ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ بل أنا أوافقكم في

(١) يقال خالفني فلان إلى كذا قصده وأنت مول عنه، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده ويلقاك الرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول خالفني إلى الماء يريد أنه ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً، وهذا الأخير هو المعنى من الآية كما بيناه.

(٢) نور الثقلين ٢: ٣٩٣ في كتاب التوحيد بإسناده إلى عبد الله بن الفضل الهاشمي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه: فقلت قوله عز وجل: وما توفيقي إلا بالله، وقوله عز وجل: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠]؟ فقال: إذا فعل العبد ما أمره الله عز وجل به من الطاعة كان فعله وفقاً لأمر الله عز وجل وسمي العبد به موفقاً وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين تلك المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى ذكره ومتى خلى بينه وبينها حتى يرتكبها فقد خذله ولم ينصره ولم يوفقه.

الانتهاء عما أنهاكم عنه، فكما أن صلاتي تنهاني عن الفحشاء والمنكر عقيدياً وعملياً، فأنا أنهاكم عن الفحشاء عقيدياً وعملياً.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾:

أنتم تشاقّونني في صالح الدعوة، حيث تجعلونني في شق «صلاتي» وتجعلون أنفسكم في شق عبادتكم وفعلكم في أموالكم وكل شقاوتكم كما تشاءون، قاطعي الصلة بين الشقين بكل مفاصلة، كما تجعلون شقاً بين رسالتي ككل وما أنتم عليه، ولكن: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ قطعاً قاطعاً لا مردّ له لثمرة الحياة الإنسانية ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ من جرّاءه ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ مثل ما أصابهم بما أجرموا شقاقاً قاطعاً.

وقد يعني نفي بعدهم عنهم زمانياً ومكانياً، فقد كان الفصل الزمني ثلاثة قرون، ثم المكان هو القرب بين مدين وسدوم.

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

أطلبوا غفره عما مضى رفعاً، وعما يستقبل دفعا، طلباً بقال من حال في أعمال ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ بعد كامل الاستغفار فـ ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ الذي رباني بهذه الرحمة والليونة والوداد، ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم ﴿وَدُودٌ﴾ لا يرد قاصديه، إذا قصدوه، ولا مستغفريه إذا استغفروه، فهنا ﴿رَبِّى﴾ اعتباراً بخبرته الرسالية أنه رحيم ودود، وهناك «ربكم» اعتباراً بالمعرفة العامة بربوبيته، ثم الجمع بينهما جمع بينهم وبينه في ربوبيته تعالى، ولمحة إلى خاصة ربوبيته له رسولاً إليهم.

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾:

هناك «لا نفقه» وجوه عدة، منها أن «على أذاننا وقر» فلا نصغي إليك حتى نفقه ما تقول، وأخرى أنّ على قلوبنا أكنة أن نفقه ما تقول كما ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[1] وثالثة أننا لا تقنعنا حججك، فإنها داحضة لا تثبت حقاً تدعيه، فلا نفهم مدعاك بدعواك، هذه وما أشبه من عاذرة غادرة من هؤلاء الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً.

ذلك والفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وليست حجتك وصلة حاضرة لبغية غائبة فـ ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ...﴾.

أجل ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ﴾ لأنك في شق صلاتك ونحن في شق آخر فلا تجاوب بيننا ولا تفاهم، ولأنك لا تقول صالحاً تقبله العقول.

إذاً ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ وهكذا تقول الجاهلية المتحضرة نسخة حاضرة عن الغابرة وعلى طول الخط، تقول أمام كافة الحجج الرسالية البالغة «لا نفهم» حطّاً لموقعها عن أن تُفهم، وأنها لُغَز وأساطير لا يفهمها الفاهمون، وإعذارا لأنفسهم ألّا حجة فيما لا يفهمه المكلفون.

أجل ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ فلا قوة لك في الحجة تفهم أو تفحم ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ لا تقوى علينا، ولا تعني ﴿ضَعِيفًا﴾ أنه أعمى كما قيل، فقد يكون الأعمى أقوى من البصير، وأن العمى ليست نسبية، وهنا ﴿فِينَا﴾ تختص ضعفه بذلك الظرف، فلا قوة لك في هذه اللجة تفحم، فتحملنا على قبوله بتأمل أو تعمّل، اللّهم إلّا رهطك، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ وهو أنحس عذاب وأتعسه ثم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ لا عزة الحجة ولا عزة القوة، فأنت بيننا ضعيف ضعيف لا دور لك إلّا كور، وإنما العزيز المانع من رجمك هو رهطك بعزة المنعة أم عزة الكرامة أماهيه.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٥.